مواطن الكفاءة القرائية للمثيرات الأسلوبية لدى علماء التراث : (دراسة في النص القرآني)

الأستاذ الدكتور : عرابي أحمد أستاذ اللغة العربية[1]

ملخص البحث :

تعتبر وجهات النظر القرائية ظاهرة شائعة عند الباحثين والعلماء قديما و حديثا. والدواعي والأسباب التي دعت إلى هذا التعدد سنة من سنن الله التي فطر الناس عليها وخاصة إذا تعلق الأمر بالتعبيرات التي تلفت نظر المتواصل مع النص. وهو ما أطلقنا عليه- المثير الأسلوبي- لأنه تعبير يلح على القارئ أن يتعمق في التأمل الذي بدوره أن يؤدي إلى الاختلاف و التباين في الفهم و الاستقراء و ذلك أمر يفرض نفسه. لأنه من طبيعة البشر علاوة على أن هناك أسباب تدعو إلى التنوع القرائي كاختلاف العقائد و المناهج و المواقف الثقافية و المرجعيات الذهبية و الدينية و غيرها. و إذا كانت غاية كل قارئ أو متأمل للنص هي الوصول إلى عالم النص و ضبط قصد يته، و تحديد ما يريده صاحب الخطاب، فان الوصول إلى هذه الغاية ليس من السهولة بمكان؛ لان آليات القراءة في اللغة قابلة هي الأخرى للاحتمال و التعدد بالإضافة إلى القرائن و العوامل الخارجية عن النص و التي لا ينكر لها اثر على تأويل القارئ في ما يراه، و قد يكون ذلك من حقه، كما قد يكون الراى المخالف له حق أيضا.

الكلمات المفتاحية: الكفاءة، الدلالة، القراءة، المثيرات، الخطاب، الاحتمال، التعدد القرائي ، اللطيفة، اللافتة .

Abstract

Reading viewpoints are a common phenomenon for researchers and scientists, both ancient and modern, and the motives and reasons that call for this multiplicity is one among Allah's ways according to which Mankind has innately been created, especially when it comes to expressions that draw the recipient's attention with the text- which we call the stylistic excitement. Because it is an expression that urges the reader to delve deeper into meditation which in turn leads to difference

[1]- تاريخ الايداع : 2017-10-22 تاريخ الموافقة : 2017-11-15

and divergence in understanding and induction, and this imposes itself. Because it is out of human beings nature in addition to that there are reasons calling for reading diversity as different doctrines, curricula, cultural attitudes, doctrinal, religious references and others. If the goal of every text reader or contemplator is to reach the world of the text and tune its intentionality, and determine what the author wants, the attainment of this end is not easy; because the reading mechanisms in the language are also subject to the probability and pluralism in addition to the evidence and external factors to the text, whose impact on the reader's interpretation in what he sees cannot be denied. This may be his right, and the dissenting opinion may also be right.

Keywords: Competency, significance, reading, exciters, discourse, probability, multi-readings, gracious, remarkable

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى دراسة المعنى في تراثنا اللغوي الذي كان يأتي عرضا في ثنايا بعض الدراسات التي تناولت ذلك التراث الذي نجده على سبيل المثال في الدراسات اللغوية والدلالية عند علماء الأصول وعلماء التفسير وعلماء الكلام أثناء تناولهم لتحليل النص القرآني. ومن هنا تكمن أهميته فهو يدرس ما تركه الأقدمون في مجال الدراسة الدلالية وهو قراءة جديدة في الدلالة اللغوية القديمة والكشف عن تصور العلماء القدامى للمعنى في كل مستوى من مستوياته المتعددة .و حاولت الوصول إلى حقيقة هذه الافتراضات على ضوء الإجابة عن إشكالية تتمثل في التساؤلات التالية:

1. هل كانت الآليات اللغوية كا الإعراب والدلالة الصرفية وشكاليات الدلالة اللفظية – مثلا - هي التي أدت إلى تلك المنافحات الجدلية ؟ أم هو الرأي والخلفيات الفكرية والعقائية التي كانت تختبئ وراء الظاهرة اللغوية ؟ وخاصة فيما يتعلق بالنص القرآني حتى صدرت الفتاوى في تنويع قراءة النص بين مذمومة وممدوحة ؟

2.هل كانت هذه القراءات في خدمة النص القرآني والدراسات اللغوية ؟أم هو مجرد تحمل وإجحاف في حقها، وفي حق النص نفسه ؟ وإذا كان الجواب بنعم فهل نعتبر القارئ عاملا من عوامل التعدد الدلالي على أساس أن التأويل فعالية ذهنية يقوم بها المتأمل أثناء استنباط المعنى؟ وهل يحمل التاريخ علماء التراث مانتج عن تلك التأويلات من من مواقف وسلوكات أدت إلى ما لا تحمد عقباه و يجيب البحث عن هذه التساؤلات من خلال النماذج الآتية:

1-مثيرات التراكيب :

يمكن أن نطلق على تلك اللطائف القرآنية مصطلح المثير الأسلوبي وهو تعبير قرآني لطيف ولافت يخرق القاعدة ويتجاوز العرف اللغوي . فيفرض نفسه على القارئ .وقد اهتم علماء التراث من مفسرين ولغويين وأصوليين وفقهاء إلى هذه الإشارات الإلهية . وبذلوا قصارى جهوجهم في تأويل هذه الآيات اللا فة للعقل المتدبر وقرأ ها كل متأمل على ضوء ما تقتضيه عقيدته ونهجه . والبحث لايركز على بعدها الديني أو العقائدي .وإنما يلتفت إلى كفاءة اللغة العربية لدى أولائك الباحثين من خلال ما قدموا من تخريجات رائعة ولطيفة كانت هي الأخرى لطائف اللاطائف .وترتبت عنها وجهات نظر مختلفة.

ونعي بها كل تعبير يلفت انتباه القارئ ويدعوه إلى التأمل في النص المقروء. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿...وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[1] وقد تساءل الرازي:هلا جزم "لا ينصرون"؟ :"قلنا عدل به عن حكم الجزاء إلى الإخبار ابتداء. كأنه قيل أخبركم أنهم لا ينصرون والفائدة فيه، أنه لو جزم لكان نفى النصر مقيد بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رفع نفى النصر وعدا مطلقا كأنه قال:ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم لا يجدون النصر بعد ذلك قط بل يبقون في الذلة والمهانة أبدا دائما".[2]

ثم أراد الرازي أن يؤول الآية تأويلا نحويا معتمدا على ظاهرة الحذف الافتراضي لكي يطابقه معنى الصناعة النحوية فقال:" ما الذي عطف عليه قوله:(ثم لاينصرون) (الجواب): هو جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ثم أخبركم أنهم لاينصرون، وإنما ذكر لفظ ثم لإفادة معنى التراخي في المرتبة، لأن الأخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار".[3]

و قال القرطبي: (ت،671هـ):" وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار" يعني منهزمين وتم الكلام " ثم لا ينصرون" مستأنف, فلذلك ثبت فيه النون ".[4]

1- آل عمران: 111

2-التفسير الكبير، للرازي : ج28/3

3-المصدر نفسه، ج28/3.

4-الجامع لأحكام القرآن, القرطبي , ج4/74.

ودعم صاحب كتاب التسهيل هذا المعنى فقال:"قوله "لا ينصرون" إخبار مسأنف غير معطوف على"يولوكم الأدبار"وفائدة ذلك أن تولية الأدبار مقيد بوقت القتال، وعدم النصر على الإطلاق، وعطف الجملة على جملة الشرط والجزاء، "ثم" للترتيب لأحوال لأن عدم نصرهم على الإطلاق أشد من توليهم الأدبار حين القتال"[1].

ويطلق على هذا التأويل "الدلالة النحوية العامة"، "وهي الدلالة المحصلة من استخدام الألفاظ أو الصور الكلامية في الجملة المكتوبة أو المنطوقة على المستوى التحليلي أو التركيبي، ويطلق عليها أيضا الوظائف النحوية أو المعاني النحوية"[2] وهي المعاني العامة المستفادة من الجمل والأساليب بشكل عام.

وهذه الوظائف النحوية العامة (الدلالة النحوية) تحصل في الأغلب الأعم باستخدام الأدوات، وتكمن أهمية تلك الأدوات في أنها كلمات معجمية أو "مورفيمات"[3] حرة تعامل معاملة اللفظ داخل النظم، ومنها على سبيل المثال حروف المعاني بصفة عامة، إلا أن دلالة هذه المورفيمات لا يمكن إدراكها مستقلة عن السياق وهكذا تناولها العلماء الأقدمون، وكان هدفهم من ذلك أن المعنى هو الغاية التي ينشدها كل متلق، وما اللفظ إلا وسيلة لبلوغ المعنى، فهو خادم أو تابع له ولذلك وظفوا ما يطلق عليه " القرينة" ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى:﴿ **كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾. [4]

"ففي الآية تقديم اللاحق على السابق؛ "والقرينة اللفظية في سياق المقال هنا وهي قوله "من قبلك" كافية لفهم أن المعطوف سابق في الزمان على المعطوف عليه"[5].

وجعل الأشعري التأويل النحوي داخلا فيما اشتهر به منهجهم في تأويل النص القرآني.لأن التراكيب اللغوية الدلالية النحوية من الآليات الهامة في تأويل النص القرآني أو ما يمكن أن يطلق عليه

1_كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ،لشيخ الإمام محمد بن أحمد بن جزى الكلبي دار الكتاب العربي بيروت لبنان. ج160/4

2_علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية ،لدكتور فريد عوض جيدر ، مكتبة النهضة المصرية ، 1999م ص45 وينظر اللغة العربية، معناها ومبناها، د. تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتابة ، سنة 1973م ص: 178. وينظر العربية والوظائف النحوية، دراسة في إتساع النظام والأساليب ، الدكتور ممدوح عبد الرحمن الزمالي ، دار المعرفة الجامعية سنة 1996 م ص : 104.

3_المورفيم هو عبارة عن صائت أو صامت + صائت وهو ما يتصل بالكلمة من السوابق واللواحق فالأول مثل أحرف المضارعة في النحو العربي والثاني مثل الضمائر المتصلة.ينظر أبحاث في اللغة و العروض أحمد سليمان الياقوت, دار المعرفة الجامعية. ص: 38.

4- الشورى : 03

5 أ-ساليب العطف في القرآن الكريم، الدكتور مصطفى حميدة. مكتبة لبنان. ناشرون. الشركة المصرية العالمية للنشر. لو نجات. 1999م. ص:56.

التأويل النحوي في القرآن الكريم. فلم يستغن أي مفسر للقرآن الكريم عن هذه الآلية، و لا يمكن فصلها عن الدلالة بصفة عامة,و ذكرها الغزالي في جملة ما سماه " طريقة فهم المراد من الخطاب ". [1]

2-دلالة التقديم والتأخير :

"والإعراب في اللغة العربية يقوم بدور أساسي في تحديد الوظائف النحوية للكلمات من خلال حركاته التي تفرق بين كلمة وأخرى بالاشتراك مع العنصر الصرفي الذي يميز بين الآسم والفعل والحرف..."،[2] وكما قد تتعارض دلالة اللفظ مع المعنى المقصود من النص من حيث الظاهر فكذلك الشأن بالنسبة لتراكيب النحو وذلك من حيث التقديم والتأخير أو الحذف وهذا الظاهر يرد أو يؤول اعتمادا على القرائن الخارجية التي يجب أن تكون دلالته قوية و راجحة على المعنى الظاهر. ومن ذلك مثلا قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** ...الآية ﴾. [3] .فإن القيام في هذه مصروف عن معناه الظاهر إلى معنى قريب محتمل وهو العزم على أداء الصلاة.

قال أبو حيان:"والذي رجح هذا الاحتمال أن الشارع لا يطلب الوضوء من المكلفين بعد الشروع في الصلاة، وإذا كان الوضوء شرطا لصحتها، والشرط يوجد قبل المشروط لا بعده وهو معنى قريب يتبادر فهمه بمجرد قراءة الآية أو سماعها"[4] ومنه قوله تعالى:﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾. [5]

جاء في هذه تقديم القراءة على الاستعاذة والواقع الشرعي أن الاستعاذة مقدمة وذلك ما أقرته النصوص الشرعية الخاصة بآداب تلاوة القرآن وهذا التقديم هو الذي دعا المفسرين إلى التلاوة، فقال الرازي:" الفاء في قوله (فاستعذ بالله) للتعقيب، فظاهر هذه يدل على أن الاستعاذة بعد قراءة القرآن وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين...والفائدة فيه أنه إذا قرأ القرآن استحق به ثوابا عظيما

1 - المستصفى الغزالي، ج 21/2.

2 - علم الدلالة و المعجم, د. عبد القادر أبو شريفة , ص: 39 .

3 - المائدة: 06.

4-النهر المار من البحر المحيط، لإمام أبو حيان الأندلسي تحقيق خمر الأشقر، دار الجيل بيروت لبنان، ج204/2.

5-النحل : 98

فإن لم يأت بالاستعاذة وقعت الوسوسة في قلبه وتلك الوسوسة تحبط ثواب القراءة أما إذا استعاذ بعد القراءة اندفعت الوساوس وبقي الثواب مصونا عن الإحباط" .[1]

وهذا النوع من التأويل يبقي النص على ما هو عليه من حيث الترتيب فهو محالة لإيجاد ما يدفع التساؤل الذي يثيره ظاهر النص لأنه ترتيب غير مطابق للواقع. فهو تأويل توفيقي بين ظاهر النص والواقعية.

وقد يلجأ المتلقي إلى احتمال يالحذف في النص ليبقى النص محافظا على ترتيبه ولهذا قال الرازي:"..إن الاستعاذة مقدمة على القراءة وقالوا: معنى الآية إذا أردت أن تقرآ القرآن فاستعذ وليس معناه استعذ بعد القراءة ومثله: إذا أكلت فقل باسم الله، وإذا سافرت فتأهب..." .[2]

وما يلاحظ في الآية أن الفاء هي فاء الجواب الرابطة بين الشرط وجزائه وهي غير فاء العطف إلا أن كليهما يقوم بوظيفة الربط بين الشرط والجواب ووظيفة الترتيب والتعقيب. و يعد هذا دلالة على خروج حروف المعاني عما وضعت له أصلا.

وهذا خرق لمعيارية الترتيب بين الشرط وجزائه واعتمد هذا الخرق على الطريقة الشرعية والعقلية والتي تعني أن تكون الاستعاذة قبل البدء في القراءة. ولعله من الواضح أن فهم الجزاء لاحقا للشرط في الزمان مهم في بعض الآيات لأنه تقوم عليه أصول تشريعية، ويفهم من هذا أن الأصل في الفاء الواقعة في جواب الشرط أن تفيد الترتيب في الزمان إلا إذا قامت في السياق قرينة تفيد غير الترتيب وعليه فإنني أقول: إن الترتيب في هذه الفاء ظاهرة سياقية، أي أن السياق هو الذي يحدد دلالتها على هذا المعنى أو ذاك فدلالتها كدلالة اللفظ المعجمي تماما.

وقال تمام حسان :"وإذا كان النحو هو نظام العلاقات في السياق فمجال النظر في الزمن النحوي هو السياق وليس الصيغة المنعزلة...لأن معنى الزمن النحوي يختلف عن معنى الزمن الصرفي...وإن الزمن النحوي وظيفة السياق تحددها الضمائم والقرائن".[3]

قد يكون عدم الترتيب في الصناعة النحوية مثيرا كما في الآية السابقة، لأنه عندما يتعارض مع قرينة عقلية أو شرعية فسيكون ملفتا للنظر داعيا إلى التأمل مؤديا إلى التأويل، وقد لايكون هذا

1-التفسير الكبير الرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي البكرى. دار النشر بيروت 1398هـ 1978 م، ط2 , ج352/5.
2- التفسير الكبير الرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي البكرى . دار النشر بيروت 1398هـ 1978 م، ط2 , ج352/5.
3-اللغة العربية معناها ومبناها. الدكتور تمام حسان، عالم الكتب الطبعة الثالثة سنة 1998م، ص: 242.

التأويل ملفتا من الناحية الصناعية، وإنما يبقى التساؤل للقارئ لماذا؟ كان كذا ولم هكذا؟ ومن ذلك- مثلا- قوله تعالى:﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ...الآية﴾ [1]،فقد قدم الذكر للكثرة، لأن تقديم السارق على السارقة يدل على أن الذكر أجرأ عليها من الأنثى ومنه إذا اتهم ذكر وأنثى في سرقة ولم توجد الأدلة التي تثبت التهمة على أحدهما، كان هذا التقديم دليل يستأنس به على اتهام الذكر وتبرئة الأنثى.

والدليل على ذلك أن ما قد يراه بعضهم تأويلا قريبا قد يبدو للبعض الآخر تأويلا بعيدا، والسياق هو الذي يرجح أحدهما على الآخر، وأن الذوق الفقهي يلعب دوره الهام في الحكم على التأويل بكونه قريبا أو بعيدا.

"ولكن المحور لايخرج عن دائرة اللغة ولو باحتمال. كما لا يبتعد عن حدود الشريعة في مبادئها ومقاصدها، ولو كان في ذلك الكلفة في بعض الأحيان..." [2]

ويقوم التأويل حسب المقتبس السابق على دائرتين الدائرة اللغوية والأصول الشرعية إلا أن هذه الأصول الشرعية لاتخرج هي الأخرى عن الدائرة اللغوية بل هي مرتكزها والأساس الذي تعتمد وإذا كانت الدلالة اللفظية أو التركيبية، لا تفيد اليقين كما قيل:"...الدليل اللفظي لايفيد اليقين لأنه مبني على نقل اللغة والنحو والصرف وعدم الاشتراك والمجاز والإضمار والنقل أي يكون منقولا من الموضوع له إلى معنى آخر..." [3]

وإذا كانت الدلالة اللغوية لا تفيد اليقين انعدمت فائدة الخطاب الذي نزل به القرآن، ولكن دلالتها ظنية على التوقيت حتى توجد الأدلة التي تنقلها إلى اليقين أو إلى أحد الاحتمالين.

ومن التأويل البعيد أيضا ما ذهب إليه القائلون بوجوب مسح الرجلين في الوضوء لا غسلهما في آية الوضوء السابقة، وذلك في قوله تعالى:﴿ ...**وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** ...الآية﴾ .[4]

1- المائدة : 38.

2- تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، أديب صالح، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، سنة: (1404هـ-1984م)، ج431/1.

3-شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، سعد الدين مسعود بن عمر التفتزاني الشافعي ضبط وتخريج، الشيخ زكرياء عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، سنة(1416هـ-1996م)، ج240/1..

4-المائدة : 06

"فقد احتجوا بقراءة الجر في قوله "وأرجلِكم" وأن ذلك كان عطفا على قوله: "برؤوسِكم"وقراءة الخفض قراءة صحيحة سبعية، فيجوز التأويل بالمسح عندهم بهذا الاحتمال الذي جاء من هذه القراءة".[1]

3-إشكالية الدلالة اللفظية :

وهذا ما كان يراعيه الرازي – مثلا - عندما كان يؤول نصوص القرآن الكريم ومن ذلك – مثلا- قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾.[2]فاللفظ الذي يثير الانتباه قوله تعالى﴿اتق الله﴾ خطابا للنبي-صلى الله عليه وسلم- وإذا كان النبي لا يتوقع منه عدم التقوى، فكيف يخاطب بالأمر الذي يدل في ظاهره على عدم امتثال المأمور به،وفي اللغة لا يصح أن يقال لمن ارتكب الفعل إفعل.لأن النبي-عليه الصلاة والسلام-كان متقيا فما التأويل الذي يناسب دلالة اللفظ على المعنى المقصود من الشارع الحكيم.؟

أجاب الرازي بقوله:"إنه أُمِرَ بالمداومة على التقوى، فإنه يصح أن يقول القائل للجالس: اجلس هاهنا إلى أن أجيئك، ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم أي دم على ما أنت عليه".[3]

إلا أن تأويل الرازي لا يحل المعضلة الدلالية من حيث اللغة، لأننا لا نقول للساكت اسكت إلا إذا توقعنا منه الكلام، ولا نقول للجالس اجلس إلا إذا توقعنا منه القيام، فالنبي –عليه الصلاة والسلام- كان متقيا فما الوجه في ذلك؟ فأجاب الرازي عن السؤال بقوله:"هو أن النبي –صلى الله عليه وسلم-، كان كل لحظة يزداد تقوى وعلما ومرتبة حتى كان حاله بالنسبة إلى ما هو عليه تركا للأفضل، فكان له في كل ساعة تقوى متجددة، فقوله:"اتق الله" على هذا أمر بما ليس فيه".[4]

وقد ذهب الزمخشري(ت538هـ) إلى ما ذهب إليه الرازي فقال:"اتق الله" واظب على ما أنت عليه من التقوى واثبت عليه وازدد منه،وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره".[5]

---

[1]-تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، أديب صالح ، ج391/1.

2-الأحزاب، الآيتان (1، 2).

3-التفسير الكبير، للرازي ج567/6.

4-المصدر نفسه، ج567/6.

5-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج248/3.

وقال أبو حيان(ت745هـ) :"نزلت تحذيرا له وتنبها له على عداوتهم لأن اليهود كانوا يظهرون النصائح في طرق المخادعة، ولخلقه الكريم وحرصه على ائتلافهم ربما كان يسمع منهم، وهذا منه لحرصه على إيمانهم ولرأفته بعباد الله حتى ولو كانوا مشركين ومنافقين، وهذا التأويل يقتضيه ظاهر اللفظ".[1]

وما يرد رأي أبي حيان ما ورد في النص من القرينة اللفظية التي اشتمل عليها السياق اللغوي وهي لفظة "النبي" وهي صارفة أيضا إلى المعنى الذي ذهب إليه كل من الرازي والزمخشري وتبين أن اللفظ لا يحمل على ظاهره، لأن النبي معصوم والعصمة تقتضي ألا يحتمل منه عدم التقوى، وحتى لا تصير دلالة اللفظ على ظاهره من باب تحصيل الحاصل الذي يجب أن ينزه عنه القرآن الكريم، وعلى الرغم من هذه التأويلات فإن دلالة الأمر في الآية مازالت في حاجة إلى جواب.

وتعرض الشيخ الصابوني وهو من الأشعرية المعاصريين في كتابه "أحكام القرآن " إلى تفسيرها حيث قال:" إن الأمر خطاب للرسول –عليه الصلاة والسلام- موجه إليه في الظاهر، والمراد به أمته، بدليل صيغة الجمع التي ختمت الآية الكريمة الثانية:﴿إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ [2]" قالوا وفي قوله "تعملون" فيه إلتفات[3] من ضمير المفرد إلى الجمع".وإذا أولنا "واو" الجماعة على مخاطبة الواحد بضمير الجمع للتكريم والتشريف وهو الشائع في اللغة العربية، فإن المشكلة الدلالية تبقى دائما في حاجة إلى مناقشة. ولهذا رأينا الإمام الرازي – مثلا- يستعين بالقرائن الخارجية عن النص وهي القرائن غير المذكورة في السياق نفسه بل وردت في موضوع آخر، وقد تكون هذه القرائن آية كريمة أو حديثا شريفا. وهو ما يطلق عليه في علم الدلالة:"القرائن اللفظية المنفصلة.[4]

والآية السابقة لها علاقة بمسألة عصمة الأنبياء –عليهم السلام- وقد خاطبهم ربهم بهذا النوع من الخطاب في القرآن الكريم، ومن ذلك –مثلا- قوله تعالى:﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ**

1-النهر المار من البحر المحيط، للإمام أبي حيان الأندلسي، تحقيق الدكتور عمر الأشقر، دار الجيل بيروت. الطبعة الأولى. سنة 1416هـ-1995م، ج500/4.

2-روائع البيان في أحكام القرآن للصابوني. مكتبة الغزالي، مؤسسة مناهل العرفان. الطبعة الثالثة سنة 1400هـ-1980م، ج60/2.

3-الإلتفات: هو نقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر، وهذا يحسن أن يسمى التفات الضمير، ينظر اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشف اصطلاحات الفنون الشيخ محمد على بن على النهانوي بيروت المكتبة الإسلامي، ج1290/5.

4-ينظر علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية. الدكتور فريد عوض حيدر. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة سنة 1999م. ص:103.

وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.[1]

وظاهر الآية يدل على أن النبي –صلى الله عليه وسلم- حصل منه الذنب والمخالفة والظلم وهذا يعني أن الأنبياء غير معصومين، وبذلك يصبح قوله تعالى: "يا أيها النبي اتق الله" على ظاهره ولا يحتاج إلى تأويل، وهذه من حجج الطاعنين في عصمة الأنبياء –عليهم السلام-.

وذكر الرازي أدلتهم أثناء تأويله لهذه الآية قائلا:

"احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء –عليهم السلام- بهذه الآية من وجوه: (الأول): أنه –عليه الصلاة والسلام-طردهم والله تعالى نهاه عن ذلك الطرد، فكان ذلك الطرد ذنبا(الثاني): أنه تعالى قال: فتطردهم فتكون من الظالمين، وقد ثبت أنه طردهم فيلزم أن يقال إنه كان من الظالمين (الثالث): أنه تعالى حكى عن نوح-عليه السلام- أنه قال:﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ...الآية﴾ [2] ثم أنه تعالى أمر محمد –عليه الصلاة والسلام-بمتابعة الأنبياء-عليهم السلام- حيث قال تعالى:﴿

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ...الآية ﴾ [3] فبهذا الطريق وجب على محمد -عليه السلام - أن لا يطردهم فلما طردهم كان ذلك ذنبا.." [4]

استدل لصالح الطاعنين في عصمة الأنبياء –عليهم السلام- بظاهر النص، ثم دعم دلالة ذلك الظاهر بنصوص أخرى تتناول الموضوع نفسه، وظاهرة الاستدلال بالنصوص القرآنية على المعنى في نص ما منهج نهجه علماء الأصول ثم وظفه المفسرون في تأويل الخطاب القرآني.

ثم رد حجج الطاعنين بقوله:"والجواب عن الأول:

- "أنه -عليه الصلاة والسلام- ما طردهم لأجل الاستخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وإنما عين لجلوسهم وقتا معينا سوى الوقت الذي كان يحضر فيه أكابر قريش، فكان غرضه منه التلطف في إدخالهم في الإسلام، ولعل –عليه السلام- كان يقول هؤلاء الفقراء من المسلمين لا يفوتهم بسبب هذه المعاملة

1-الأنعام: 52.

2- هود: 29.

3-الأنعام: 90.

4-التفسير الكبير ، الرازي . ج49/4.

أمرهم في الدنيا وفي الدين، وهؤلاء الكفار فإنه يفوتهم الدين والإسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى، فأقصى ما يقال: إن هذا الاجتهاد وقع خطأ إلا أن الاجتهاد في الخطاء مغفور، أما قوله: " إن طردهم يوجب كونه –عليه السلام-من الظالمين.فجوابه أن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غيرموضعه، والمعنى أن أولئك الضعفاء الفقراء كانوا يستحقون التعظيم من الرسول-عليه السلام- فإذا طردهم من ذلك المجلس كان ذلك ظلما إلا أنه من باب ترك الأولى والأفضل لا من باب ترك الواجب".[1] وهذا التأويل يراعي أصول الدين التي اتفق عليها الأشاعرة ومن ذلك القول بعصمة الأنبياء.[2] أما التأويل الذي يحتال فيه المؤول على صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما فيه تكلف غير مقبول " وذلك إذا أحسوا أن اللفظ القرآني يصادم مذهبهم الباطل، كما فعل بعض المعتزلة ففسر لفظ "إلى" في قوله تعالى:﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾. [3]بالنعمة، ذهابا منهم إلى أن "إلى" واحد الآلاء بمعنى النعم، فيكون المعنى. ناظر نعمة ربها، على التقديم، والتأخير وذلك كله ليصرف الآية عما تدل عليه من رؤية الله في الآخرة".[4]وهذا المذهب في التأويل يسمى "التفسير بالرأي[5]" وهو:" عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر كلا م العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للالفاظ العربية و وجوه دلالتها".[6] وواضح من التعريف أن المفسر في تلك الحالة لا يكتفي بالنقل أو الأثر بل يدلي برأيه في تفسيره ويكون وجهة نظر خاصة به، وهو محمود إذا بعد عن الأهواء والميل إلى الأغراض الشخصية.

وتفاسير الفرق الإسلامية المختلفة ترجع –في الحقيقة- إلى التفسير بالرأي غير أنها تدخل في النوع المذموم منه، لأن أصحابها لم يؤلفوها إلا لتأييد اهوائهم أو الانتصار لمذاويقهم [7] ومواجيذهم[1]،

1- التفسير الكبير ، الرازي، ج50/4.

2 - ينظر أصول الدين, البغدادي, ص: 168.

3 -القيامة:22، 23.

4-التفسير والمفسرون ،الدكتور حسين الذهبي, مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الرابعة.1409هـ-1988م ج270/1

5 - ومن هذا التفسير برأي المذموم وهو أن يسفر اللفظ أو يؤول تأويلا فيه كثير من التعسف ومثل ذلك ما قاله عبد الله بن حميد السالمي أحد أئمة الأباضية "إن النظر في اللغة غير الرؤية، ولذا يقال نظرت للهلال فلم أره ولا يصح أن يقال رأيته فلم أره وإطلاقه على الرؤية مجاز لا يصح إلا بقرينة والعدول عن الحقيقة إلى المجاز خلاف الظاهر" ينتظر مشارق أنوار العقول، عبد الله السالمي. تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الجيل الطبعة الأولى 1409هـ-1989. ج369/4.

6 -التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي ج246/1.

7 -والذوق في معرفة الله عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون فيه بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره. كتاب التعريفات، الشريف علي الجرجاني، ص: 107.

من ذلك تفسير المعتزلة والمتصوفة والباطنية[2] ".[3]

وسبب وقوع هذه الطوائف في التأويلات الفاسدة أنهم كانوا لا يلاحظون القيود اللاحقة باللفظ والمقيدة للمراد منه، فإن اللفظ يختلف المراد منه بحسب القيود المصاحبة له، كما يختلف بحسب العموم والخصوص والإطلاق والتقييد.

وقالت عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ:" إن هناك من يرى أن التأويل يوجه النص توجيها يعوزه في كثير من الأحايين ذوق العربية النقي ومزاجها الأصيل وينحرف به عن وجهته التعصب أو خطأ في المنهج أو قصور في التناول".[4]

4- الدلالة النصوصية :

وهي أن يكون نص ما قرينة لدلالة المعني في نص آخر بينهما علاقة . وهذا ما اصطلح عليه في علوم القرآن بالمطلق والمقيد والمعام والخاص ،ويمكن أن نطلق عليه مصطلح التناص .ومنه "لما نزل قوله تعالى:﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾.[5] قال عبد الله بن الزبعرى [6]: لأخصمن محمدا، فجاء إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فقال: قد عبدت الملائكة، وعبد المسيح، أفيدخلون النار فأنزل الله تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ [7] فاحتج على النبي –صلى الله عليه وسلم- بعموم اللفظ. ولو لم يقتض اللفظ العموم لما

1-مواجيدهم: ج. الوجد، مايصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتمنع، وقيل: هو برق تلمح ثم تخمد، والوجود فقدان العبد بمحق أوصاف البشرية، ووجود الحق:لأنه لابقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة، وهذا معنى أبي الحسن النوري: أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد ،إذا وجدت ربي فقدت قلبي، وهذا معنى قول الجنيد: علم التوحيد بداية والوجود نهاية، والوجد واسطة بينهما. كتاب التعريفات الجرجاني، ص: 250.

2 -هم الإسماعيلية الشيعية ويلقبون بالباطنية لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره، أو لقولهم بالإمام الباطن المستور. التفسير والمفسرون، حسين الذهبي، ج227/2.

3 -مباحث في علوم القرآن، صبحي صالح، دار العلم للملايين، الطبعة: 13، سنة 1981، ص: 294.

4- التفسير البياني للقرآن الكريم، الدكتور عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ. دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة ج120/1

5- الأنبياء : 98.

6- هو عبد الله بن الزبعري بن قيس بن عدي كان من أشد الناس عداوة على رسول الله –صلى الله عليه وسلم- بلسانه ونفسه وكان من أشعر الناس وأبلغهم. أسلم على الفتح واعتذر إلى رسول الله –صلى اله عليه وسلم- فقبل عذره، ثم شهد ما بعد الفتح من المشاهد، ينظر كتاب التبصرة في أصول الفقه الشيرازي ص:106 هامش.

7- الأنبياء : 101.

احتج به، ولأنكر النبي عليه احتجاجه ".[1] و دلت (ما) في الآية الأولى على العموم ودلالتها أصلية .لأنها من ألفاظ العموم وخصصت دلالتها بالآية الثانية فالآية الأولى دلالتها منطقية بحيث اشتملت على مقدمتين ونتيجة وهما كما يلي:

المقدمة الأولى: كل من عُبِدَ فهو في النار

المقدمة الثانية: عبد المسيح والملائكة.

النتيجة: الملائكة والمسيح في النار

إلا أن المقدمة الثانية ملغاة بنصوص أخرى وهي المخصصات أو المقيدات وهذه آليات وظيفتها كسر لدلالة النص عندما يكون منعزلا.

هـ-احتمال الإطلاق [2] والتقييد وهذا من حيث اللغة والإصطلاح، فقد يرد اللفظ في نص شرعي مطلقا وقد يرد بعينه مقيدا في نص آخر. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في كفارة القتل:﴿...**وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ**...الآية﴾ [3] وقوله تعالى في كفارة الظهار:﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا** ...الآية﴾.[4]

فاللفظ الوارد في النصين هو"رقبة" ولكنه قيد بصفة في النص الأول وهي "مؤمنة" وذكر مطلقا في الثاني فقيد في الثاني قياسا على الأول.فإذا دل موضوع من القرآن على المراد لموضوع آخر حمل عليه ورجح القول بذلك على غيره من الأقوال.

ويفهم من كلامه أن القرآن سياق واحد من فاتحته إلى خاتمته."ولأن حمل المطلق على المقيد من جهة اللفظ لغة العرب".[5]

1- التبصرة في أصول الفقه الشيرازي ، ص:106.

2- المطلق عند الأصوليين: الدال على الماهية من غير قيد فإن قيد بشرط أو صفة خرج عن كونه مطلقا وهو ما يدل على واحد غير معين. ينظر التعريفات للجرجاني ص: 218.

3- النساء: 92.

4- المجادلة : 03.

5-التبصرة في أصول الفقه، الشيرازي، شرحه وحققه: محمد حسن هيتو، دار الفكر (بدون طبعة)، سنة: (1400هـ-1980م)، ص: 213.

وقال الشيرازي:"ألا ترى أن الله تعالى قال:﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ** ...الآية﴾ [1] وأراد نقصا من الأنفس ونقصا من الثمرات، ولكنه لما لم يقيده بالأنفس اكتفى به في الباقي وقال الله تعالى:﴿ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ...الآية**﴾[2] فقيد في أحد الجنسين، واكتفى في الجنس الآخر. وقال الشاعر[3]:

وما أدري إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يليني

هو الخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

فاكتفى بأحدهما عن الآخر[4].وقال أبو حيان:"بشيء مقدر في المعاطيف، أي وبشيء من الجوع وبشيء من نقص"[5].

تبين هذه المنهجية التأويلية لدي علماء التراث أنهم كانوا يتعاملون مع النص بالنظرة الشمولية .ويعتبرون النص القرآني كنص واحد من فاتحته إلى خاتمته .ولهذا ساد لديهم مصطلح : القرآن يفسر بعضه بعضا .وهذا هو مفهوم السياق .

نتائج البحث:

1-اهتمام الباحثين القدماء على مختلف تخصصاتهم بالدلالة اللغوية باعتبارها آلية أساسية من آليات تحليل الخطاب

2-اعتبروا الكفاءة اللغوية شرطا في من يتصدى لقراءة النص وتأويله .

3-التفتوا في بحوثهم إلى الدلالة اللغوية وأثرها في المعنى وقد أغفل هذه الناحية علماء فروع اللغة العربية .

1- البقرة :155

2- الأحزاب : 35

3-هو المثقف العبدي المفضليات القصيدة: 76 دار المعارف تحقيق أحمد محمد شاكر سنة 1964م ص:292. وينظر ديوانه. ص:212. شرح وتحقيق حسن كامل العبريني ط1 معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية 1290هـ 1970م وتنظر التبصرة في أصول الفقه ص : 213.

4-التبصرة في أصول الفقه ص : 213

5-النهر المار من البحر المحيط أبو حيان ج225/1

4- تعاملوا مع الظاهرة اللغوية من حيث اللفظ والتركيب وما نتج عنهما من التعدد والاحتمال في مقصدية النص .

5- أطروا دلالة القرائن اللغوية وغير اللغوية وبينوا أثرها في تحليل الخطاب

6- بينوا أثر التلوينات الصوتية والتراكيب اللغوية في المعنى .

7-اعتبار دور القارئ وما تمليه عليه عقيدته وثقافته .لأن التأويل فعالية ذهنية يقوم بها المتأمل وهو يريد استنباط المعنى

8- قدمت هذه الدراسة المتواضعة الأدلة الكافية على الطاقة القرائية عند اعلماء التراث المسلمين وبالخصوص عند علماء الأصول والفقهاء وعلماء الكلام وعلماء التفسير؛ لأن معالجة القضايا العقائدية كان في إطار لغوي دلالي عام على أساس النظرة الشاملة للغة وفلسفتها، كما طغى على أسلوبهم ومناقشاتهم المنهج الفلسفي والجدل التحليلي القائم على دحض أدلة الخصم وإثبات النقيض، الأمر الذي القارئ وهو يتتبعهم يدرك ما كانوا يتمتعون به من إمعان النظر في الدلالات اللغوية من خلال تلك يجعل التخريجات الدلالية قائمة على المناظرات الجدلية